العمارة الإسلامية بالسودان الغربي

دراسات حول النشأة والتطور والخصائص

أ.د. إبراهيم صبحي

أستاذ ورئيس قسم الآثار الإسلامية – كلية الآثار–

جامعة الفيوم – مصر

تُعدّ العمارة الإسلامية مرآةً عاكسةً للتفاعل الحضاري بين الثوابت العقدية والمتغيرات البيئية والجغرافية، حيث لم تفرض الحضارة الإسلامية نمطاً معمارياً جامداً، بل قدّمت إطاراً مرناً استوعب الثقافات المحلية وأعاد صياغتها بروحٍ إسلامية. ويبرز «السودان الغربي» كأحد أهم الأقاليم التي شهدت تمازجاً فريداً بين العمارة المحلية القائمة على الطين والمواد العضوية، وبين المتطلبات الوظيفية والروحية للمنشآت الإسلامية، مما أنتج طرازاً معمارياً متميزاً.

تكتسب دراسة العمارة في هذه المنطقة أهميتها من كونها تُمثّل حلّاً عبقرياً لمشكلات المناخ القاسي، حيث استطاع المعمار الإفريقي المسلم تطويع المواد المتوفرة في البيئة لإنشاء صروح دينية ومدنية ضخمة، تتحدى الظروف المناخية وتُعبّر عن الرمزية الدينية في آنٍ واحد. إن انتقال الإسلام عبر القوافل التجارية من شمال إفريقيا إلى جنوب الصحراء لم ينقل معه البضائع فحسب، بل نقل تقنيات البناء التي انصهرت مع الإرث المحلي، كما يتجلّى ذلك بوضوح في مساجد تُمبُكتو وجِينّي وأغاديس.

وعلى الرغم من الثراء البصري والتقني لهذا الطراز؛ فإن الدراسات التي تتناول التحليل الهندسي والإنشائي لهذه العمارة لا تزال بحاجةٍ إلى تعميق وتوسّع، وتسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على المكونات المعمارية في منطقة «السودان الغربي»- وهو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على منطقتَي نهر السنغال والنيجر، بينما أُطلق اسم «سودان وادي النيل» على المنطقة الواقعة جنوب مصر، أما بالنسبة للجغرافيين والمؤرخين والرحالة المسلمين؛ فقد كانت بلاد السودان تعني لهم منطقةً أوسع بكثير، تمتد جنوب الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي إلى بلاد النوبة على نهر النيل- حيث يتناول البحث لمحةً عامة حول العمارة الإسلامية بالسودان الغربي، منذ بدايات دخول الإسلام هناك وحتى منتصف القرن العشرين، وكيف انعكست سمات الفترات التاريخية القديمة والوسيطة المحلية التي مرّت بها هذه المناطق على العمارة.

ويتناول المقال الموضوع عبر محاور تحليلية متعددة:

أحدها: حول كيف أدت مختلف العوامل دورها في تحديد ملامح العمارة، فقد عبّرت هذه المنشآت عن التمازج بين التأثيرات الإسلامية، والبربرية[١]، والفرعونية، إضافةً للمحلية، وذلك في النطاق الجغرافي الممتد من جنوب مناطق السافانا والغابات المطيرة، وحتى مجرى نهرَي النيجر والسنغال، وثمّة عديدٌ من التأثيرات العربية، والرومانية، وتأثيرات محلية من شمال إفريقيا، وأخرى وافدة من الأندلس. وقد خضعت المنطقة بعد دخول الإسلام لمختلف النظم الإسلامية في العمارة والعمران، والمستمد غالبيتها من الفقة المالكي على وجه الخصوص. وقد تميّز العمران بالبساطة؛ حيث المساقط المربعة أو المستطيلة، واستخدام الطين المُشكَّل يدوياً، أو المصبوب بقوالب، أو كُرات، وكذا طرق البناء البسيطة[٢].

ويتناول محور آخر: أهم مميزات العمارة، ومنها مثلاً الوظيفية والمرونة؛ كما في بيوت تُنبُكتو[٣] التي حوّلت كثيراً من غرف بيوتها المطلة على ساحات الأسواق لحوانيت تجارية، كما تجلّت السمة نفسها في أفنية البيوت، حيث استوعبت كثيراً من الوظائف، مثل غرف الخدم، وأحواض الغسيل، والآبار، والأكواخ التقليدية.

كما تميز العمران بمراعاة البيئة؛ حيث موجات الغبار وتيارات الرياح، وارتفاع درجات الحرارة، والأمطار الغزيرة، والفيضانات الجارفة، وكان لابد أن تتوافق هذه المنشآت على بساطتها وضعف مواد بنائها مع كل ذلك، فنجد الأسقف ذات ميول للخارج لصرف مياه الأمطار بسرعة، ووضع المواقد دائماً- وبسبب الرياح والتيارات الساخنة- خارج البيوت خشية الحرائق، والنوافذ الضيقة والمرتفعة مع قلتها لاتقاء موجات الغبار، والشوارع ضيقة ذات انكسارات وتعرجات للحد من موجات الرياح المترية والتيارات الساخنة[٤]، ولإتاحة نوعٍ من الظلال.

وأما المحور الأخير: فيتناول شواهداً من شواهد هذه

---

(١) Mauny Raymond, Notes d archaeologie sur Tombouctou, I.F.A.N.B, 14, 3, 1952, Pp.899-918.

(٢) Rene Caillie, Travels through Central Africa to Timbuctoo, p.310.

(٣) بيوت تنبكتو: هي مجموعات متنوعة من العمارة التقليدية السكنية التي لا تزال محتفظةً بكل الخصائص الفنية والمعمارية التراثية، والتي تمت صيانتها والحفاظ عليها من قِبَل منظمة اليونسكو ضمن أنواع أخرى من نوعيات العمارة بمدينة تنبكتو الأثرية، والتي تقع حالياً بجمهورية مالي الإفريقية.

(٤) Henry Barth, Travels and Discovers in North and Central Africa, Vol.4, p.418.

العمارة الباقية حتى الآن.

أهمية الموضوع:

وتكمن أهمية الموضوع في إبراز ما كان للإسلام والمسلمين من تأثيرات واضحة في مجال العمارة والعمران، وكيف أنهم استوعبوا كل المتغيرات البيئية المحلية بمختلف أنواعها، وقاموا بتطويعها لمواكبة العقيدة الإسلامية، خاصةً فيما يتعلق بالعمارة والعمران.

وقد تم تقسيم الموضوع إلى المحاور الآتية:

المحور الأول: السمات العامة والخصائص للعمارة الإسلامية في السودان الغربي.

المحور الثاني: الأصول المعمارية للطراز المعماري الإسلامي في إقليم السودان الغربي.

المحور الثالث: الشواهد المعمارية (مسجد جيني الكبير).

المحور الأول السمات العامة والخصائص للعمارة الإسلامية في السودان الغربي:

تُعتبر ظاهرة النسيج الشبكي المتضامّ معمارياً وحضرياً من أشهر خصائص عمارة السودان الغربي؛ حيث توجد تشكيلات قبلية، ومهنية وحرفية، ووظيفية، وغرباء وافدون، فهناك السُّنغاي، والأرما، والمالنكيون، والفولبي، وغيرهم من الصيادين، والمزارعين، والحدادين، ودبّاغي الجلود، والسقائين والحيّاكين، والباعة الجائلين، وطوائف الخدم والعبيد، والنبلاء من رجال الشرطة، وكبار رجال الدولة، من الإداريين والقضاة، ورجال الدين، وطلبة العلم، والموظفين والكتاب والمعلمين من الألفا، والتجار.

وقد ارتبطت كل طائفة أو عرقية أو سلالة منهم بمكانٍ أو حيّز معيّن، وجدوا فيه ضالتهم، وما يناسب ثقافاتهم ومشاربهم، وما يُشعرهم بالطمأنينة والأمان، فبوفري بتنبكتو مثلاً للعرب، وبالقرب من سَنكري، وبيلا فيراندي للطوارق. كما لوحظت الطبقية المعمارية، فأماكن وجود المغاربة مثلاً بتنبكتو هي الأكثر رقيًّا، وبيلا فيراندي أدنى من ذلك بكثير[1].

بيت القاضي بتنبكتو:

ومن خصائص العمران كذلك: الواجهات المزخرفة والحلايا المعمارية رغم بساطة الأبنية عموماً، حيث تميز غالبيتها بلمسات جمالية مبهجة؛ فالواجهات محاطةٌ بفصوص معمارية كدعامات، وبعض من النوافذ الأنيقة بالطوابق العليا ذات أسلوب مغاربي جميل، ومصاريع الأبواب الخشبية محلّاة بمطارق ومصفحة بأشرطة من الحديد في هيئاتٍ زخرفية بديعة.

العناصر الزخرفية بواجهات البيوت:

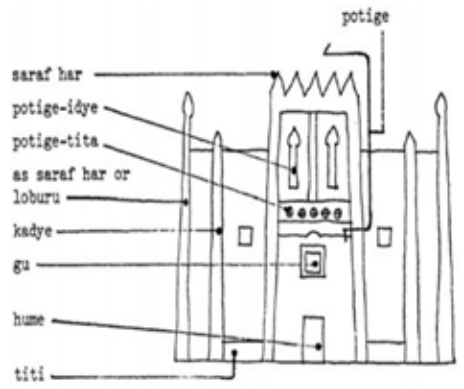

ويُحلّي الواجهات تتويجات Potige تتقدم المداخل، كما في بيوت جِيني أكثر من تنبكتو[2]، ومناطق مستطيلة Goum-hu، وأكتاف بارزة Saria، ومناطق مربعة Sara fa wey، ونوافذ مفرغة Soro funey، وأخرى مستطيلة

(١) Horace Miner, the Primitive city of Timbuctoo, p.52.

(٢) Jean-Louis Bourgeois, The History of the Great Mosques of Djenné, African Arts, May, 1987, Vol.20, No.3 (May, 1987), pp.54-63+90-92.

Soro tabai، ودخلات غائرة Toron، وســواري مستطيلة رأســية Potige idye، وقمم شــبه كروية Sara fa har، وسويريات مستدقة Potige idye وشرفات بسيطة Soro dyokoti[1].

مسميات العناصر الزخرفية بالواجهات:

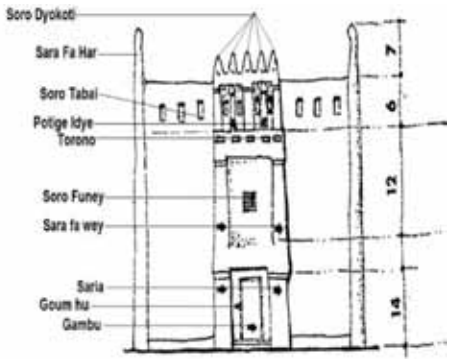

مواد البناء:

ساعدت الأنهار بإفريقيا عموماً في نشأة أشهر المدن الطينيــة، خاصةً في غرب إفريقيا ووادي النيل، بســبب ما كانت تجلبه من طمي، فجميع الأبنية منه، إضافةً لاستخدام أحجــار الحور كأساســات وجــدران، وهنــاك العديد من المصطلحات التــي أُطلقت على خام البنــاء، وهو الطين؛ فمنها Ferey، الذي اســتخدمه بناؤو سُنغاي إشارةً للطوب الأسطواني، وهو غير مرتبط بأصل كلمة طوبالي Tubali، المصطلح المســتخدم للطوب المخروطــي في الحوصه، واســتُخدم مصطلح الطابوت Al-tabut أو اللوح Lloh أو الطوب Uttub، وهو عربي وشــمال إفريقي، يشير للطوب المجفف بالشــمس، ويبدو أن مصطلح «طوب»، مثل توبالي، مشتق من العربية. وهناك مصطلح Ferey وهو نظيرٌ وثيق لمصطلح طوفا Toufa الذي اســتخدمه البامبارا، والذي ســجّله مونتيل مطلع القرن العشــرين كمــرادف للقرميد الأســطواني، ومصطلح Tuferey لدى الفولانيين، ويشير لنفــس النوع من الطوب، وهذه المجموعة من المصطلحات مختلفة صوتياً واشتقاقياً تماماً عن عائلة مصطلحات شمال إفريقيا ذات الصلة.

ويعتبر الطوب الأسطواني أساس أسلوب البناء بتنبكتو وجينــي، وهو مشــتق مــن Bambara أو Songhai أو Fulbe، كما أن معالم زخرفة وتشكيل الواجهات كالتتويجات Fotige كانت أساســاً نمطياً معيارياً ســائداً آنذاك؛ على عكس أنماط الجمالون المفتــوح الذي يحاكي التصميمات البربرية بشــمال إفريقيــا. كما تختلف طــرق المعالجات باختلاف الطوب الأســطواني المصبوب يدويّــاً، والطوب المصبوب في قوالب، والطوب المستطيل.

تقنيات البناء:

تتحد تقنيات البناء بالســودان الغربــي، خاصةً مدن وحواضر مجرى نهر النيجر وتفرعاته، حيث تقع هذه المدن ضمن الإقليم الصحراوي الجاف في المنتصف، والصحراوي المترب الأكثر جفافاً بالشمال، والمطير جنوباً، حيث منطقة السافانا، ورغم الاختلافات الطفيفة فإن تقنيات البناء شبه موحــدة، ولا تختلف إلا في القليل، كما أن الخامات موحدة، ولا تختلف إلا في طريقة الاســتخدام أو جودة المعالجات، **ومن أشهرها ما يلي:**

أ) تقنية البناء بالفخار (الجالوس):

تُعرف بطريقة العروق (المداميك)، ويُقصد بها الصف الطولــي الواحد المتصل، فيتكون البنــاء من عدة صفوف أفقية، تصل لأكثر من عشــرة صفوف بحسب حجم الكرات والارتفاعــات المطلوبة لنوعية البناء، وتُترك فترات لتجف، ثم يتم اســتئناف البناء، ويتم تجصيص الجدران من الداخل والخــارج للتدعيم وامتصاص الرطوبة[2]. اســتُخدمت هذه الطريقــة قديماً فــي الأبنية الدائريــة البدائية، حيث كتل الطيــن الرطبة اللزجة الممزوجة بالمــواد العضوية، بهيئة كــرات مختلفة الأحجام والأوزان، ملفوفة بطريقة بســيطة

(١) Labelle Prussin, The Architecture of Djenne African Synthesis and Transformation, p.192.

(٢) Labelle Prussin, The Architecture of Djenne African Synthesis and Transformation, p.73, A Dissertation Presented to the Faculty of the Graduate School of Yale University in Candidacy for the Degree of Doctor of Philosophy, 1973.

يتم رصها جنباً إلى جنب، ثم تُسد المسامات والفواصل، وتُسوّى الأسطح مع الضغط للحصول على السمك المطلوب، واستُخدمت هذه الطريقة في صناعة صوامع الغلال والأواني الفخارية الكبيرة والجرار الجنائزية والأكواخ وجدران البيوت البسيطة الدائرية ذات الطابق الواحد.

نماذج للأبنية الإفريقية المبكرة:

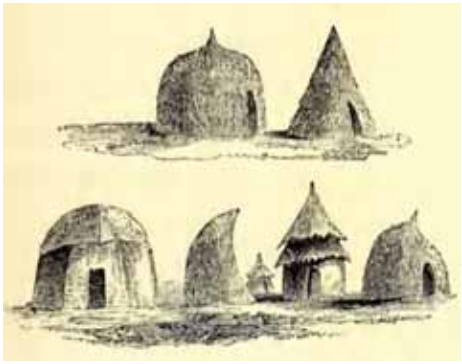

ب) تقنية البناء بقوالب (الطوب):

هي الأشهر بمختلف حقب العصور الوسطى، وتُستخدم فيها كتل جافة بخصائص متباينة بحسب التقاليد المتوارثة محليّاً، وبحسب ما يتوفر من إمكانيات مادية لصناعتها، ويندرج تحتها عدة أساليب:

١- الكتل المُشكّلة يدويّاً المجففة شمسيّاً:

ويُطلق عليها الطوب، والطوف، والطوبالي، والطوفري، والفيري، وأبعادها ١٠×٢٠×٤٠ سنتيمتراً، تُرصّ فوق بعضها، بصفوف منتظمة أو شبه منتظمة، بوضعيات متنوعة، وهي مجرد كمية من الطين المضغوط في هيئة كرات، وبعد الجفاف يتم الرص، ومن أمثلته طوب الحوصه المخروطي (التوبالي)، ولا يزال سائداً في شمال نيجيريا، ولدى طوارق جنوب الجزائر في «تيمشنت»، ويطلقون عليه «طوبس»، وفي «تابلبالا» شمال غرب الصحراء، وبعواصم «كانوري» القديمة حول منطقة بحيرة تشاد بالنيجر[١] وشرقها، وجميع قرى مجرى نهر النيجر من «أولاسو» لجيني، غير أن هذه الكتل هنا كانت مسطحةً بينما التي استُخدمت بجيني وتومبوكتو كانت دائريةً؛ على النقيض من الكتل التي استُخدمت في مساكن البامبارا بباماكو، حيث أشار تشارلز مونتيل لاستخدام طوب مسطح رقيق[٢].

٢- الكتل الطينية المعاد استخدامها جزئياً أو كلياً:

ويتم جلبها من المباني القديمة، أو مناطق طينية متيبسة بعد فترة طويلة من الجفاف دون إضافات، وتُستخدم بحالتها الطبيعية، وربما يتم تسويتها، ويُبنى بها مع استخدام الملاط الطيني[٣].

٣- الصخور الطينية الصلبة:

واستُخدمت بأجزاء من منطقة السافانا، حيث تحتوي التربة على أكسيد الحديدوز، فيصعب تفكيكها لخليط طيني دون أدوات وآلات متطورة فتصبح القطع المقتلعة من الأرض شديدة التماسك، واستُخدمت بمباني مناطق فولتا العليا وشمال شرق ساحل العاج، وتختلف هذه التقنية عن تقنية البناء بالأحجار المنتظمة بمناطق دوغون وباندياجارا بمالي.

٤- الصب أو الدكّ بخزائن (قوالب) خشبية مجهزة:

لم يكن الطين المصبوب في قوالب تطوراً محلياً بغرب إفريقيا بقدر ما كان تأثيراً وافداً، سواءً من شمال إفريقيا أو من وادي النيل، وكان إدخال هذه التقنية لغرب إفريقيا له دورٌ فعّال في تطوير أشكال معمارية جديدة، فيبدو أن لبنة «مالينكي» المصبوبة يدوياً كانت محاولةً أصلية لمحاكاة شكل الطوب المصبوب بالقوالب، وقد تم استخدام الطوب المصبوب في بناء المنازل المستديرة وغيرها.

٥- الطوب المصبوب والمجفف بالأفران (الآجر المحروق):

ويتطلب- بالإضافة إلى الخشب للتشكيل- كميات وفيرة من الوقود للحرق، ومهارات أكثر تعقيداً، واستُخدم في الرصف. وبغض النظر عن الصب في قوالب، أو الصب

(١) Labelle Prussin, The Architecture of Djenne ,African Synthesis and Transformation, p.74

(٢) Montel Charles, Une cite Soudanise Djenne metropole du delta central du Niger, p.59, Paris, Societe d edition de geographie martime et colonniale, 1932.

(٣) Labelle Prussin, The Architecture of Djenne ,African Synthesis and Transformation, p.78

يدويّاً، فقد استمرت في جيني وغوندام صناعة قطع الآجر الخزفية الصغيرة المحروقــة بالأفران؛ ففي غوندام يصنع الخزافون قرميداً صغيراً ذا انحناءات ليُســتخدم بشــكلٍ زخرفي بالجدران والحواجز بمنازل جيني، كما ظهر بمناطق شــرق نهر النيجر، ويُصنع منه يدويّاً أنابيب المياه الكبيرة، وصهاريج خزن الأمطار، وتشــارك النســاء في الاحتطاب للحرق.

وتــدل الشــواهد الأثرية على كثرته، غيــر أن تقنيات الحــرق لا تــزال مجهولة، وتوجــد بقاياه ضمــن أنقاض المســاجد والقصور والجــدران الدفاعيــة[١]، وقد بذلت السلطات الفرنسية جهوداً لإقناع السكان باستخدامه، رغم ندرة الوقود وقلة المهارات، ورفض الجديد، ما أدى لانتشاره ببطء.

ج) تقنية البناء بالروابط والدعامات الخشبية:

هي نمط تطوري في البناء والتشييد، وظهرت بالمناطق المناخية الانتقالية بين إقليم السافانا والغابات المطيرة، أو إقليم الســافانا والصحراء، في عديد من مساجد «ديولا»، خاصةً بالجدران والأسقف لدى كلٍّ من السونغاي والفولبي، في أشــكال الأقبية وقباب الحوصــه، وتعتمد فكرتها على اســتخدام الروابــط والمدادات، ففي مســاجد ديولا مثلاً تجــد الروابط لا تتكامل مع الجــدران الطينية بالكلية، بل تبدو منفصلةً هيكلياً فتُشــبه السقّالة، كما تتمثل كذلك في مســاجد «كونج» و«بوبو» و«ديولاســو»[٢]. ويبــدو أن وجود الروابط الخشــبية الأفقية يتوافق مع منــاخ المناطق ذات الرطوبة العالية بالقرب من حزام الغابات المطيرة، فتُســهم في تجانس كتلة المبنى، كما ترتبط بفكرة الأوتاد التي تبرز من خارج الجدران أحياناً، فتُشكّل نوعاً من السمات المميزة للطراز المحلي في عمليات البناء والتشييد[٣].

(١) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p.47.

(٢) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p.48.

(٣) UNESCO, world heritage for sustainable development in Africa, p.10, 2018.

شكل المآذن المبكرة التي تشبه قمم الكهوف:

طرق صناعة الأسقف والأقبية بالسودان الغربي:

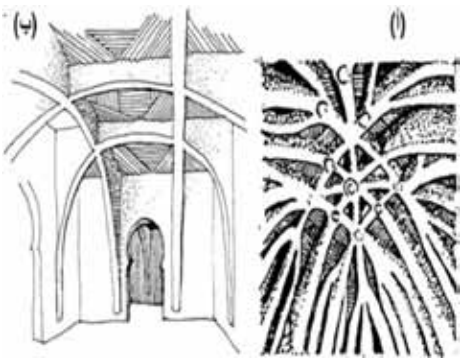

المحور الثاني الأصول المعمارية للطراز المعماري الإسلامي في إقليم السودان الغربي:

تنــاول الطرازَ المعماري في منطقة الســودان الغربي كثيرٌ مــن الرحالة والكُتّــاب، وكتابات منجو بــارك[٤] أول الكتابات الأوروبية التي أشارت للطراز المعماري السوداني، وذلك خلال وصفه الموجز لمدن منطقة ســيجو، وتحديداً عند حديثه عن المساجد المغربية المنتشرة هناك، ورغم أن

(٤) UNESCO, Plan de Conservation et de Gestion des «Villes anciennes de Djenné» - Mali, 2008 – 2012, p.5, Préparé par La Direction Nationale du Patrimoine Culturel du Mali Klessigué Sanogo, Directeur National du Patrimoine Culturel La Mission Culturelle de Djenné, Yamoussa Fané, Avec le soutien du Fonds du Patrimoine Mondial et Le Bureau Multi - pays UNESCO à Bamako.

رينييه كاليـــه[١]، ومن بعده هنري بارث[٢] والكابتن بنجر[٣]، قد زاروا بعض هذه المناطـــق؛ فإنهم لم يحددوا خصائص ومميزات العمارة، غير أن الأخير وضّحت رســوماته بعض ملامح العمـــارة الإفريقية بهذه المناطـــق، فأصّلها بطراز «الديـــولا» و«الدوغـــو» التي ظهرت ببعـــض حقب العصور الفرعونية القديمة بوادي النيل[٤].

كانت جيني وجاو وتنبكتو وســـيجو وغيرها من أشـــهر المدن، فتجلّت فيها مختلف الخصائص، ومعلومٌ أن العمارة هناك قد استمدت أصولها من عمارة الديولا Dyula، أقدم المنشآت الطينية بإفريقيا الغربية[٥]، ويليها عمارة الدوغون Dogon، وهي من المنشآت ذات التأثيرات الواضحة بعمارة السودان الغربي؛ حيث كانت الأقرب زمنياً إلى الفترات التي نشـــأت فيها المدن الكبرى، وتتضح بهاتين النوعيتين فكرة الأكواخ المســـتديرة والأحواش، إذ إن التجمعات الســـكنية المبكرة كانت أكواخاً طينية مســـتديرة مبنية جنباً إلى جنب بعضها مع بعض لتُشكّل فيما بينها فناءً خاصّاً بها[٦]، كما أن تطورها فيما بعد وتحوّلها لوحدات مستطيلة أو مربعة سار بنفس النســـق، وهو تكوين فناء داخلي مشترك، سواءً لعائلة أو مجموعة سكانية ممتدة أو متجانسة مهنياً أو عقائدياً أو عرقياً، وهو ما يتشـــابه مع الأصول الفرعونية القديمة التي ظهـــرت بمختلف بقاع وادي النيل ودلتاه وفقاً للمكتشـــفات الأثريـــة المتنوعة[٧]. وبالتالي فقـــد أكد أنصار هذا الفريق أســـبقية وغلبة التأثيرات الفرعونية، وانتشـــارها بمختلف أجزاء إفريقيا الغربية.

وعلى الرغم من أن هناك سلاسل وفترات زمنية كبيرة تـــكاد تكون مفقودة منـــذ العصر الفرعونـــي وحتى عمائر الإســـلام بالعصور الوســـطى، بل وربما تكون تلك العمائر الإسلامية قد فُقدت واندثرت نماذجها، فإنهم أبلوا في هذا المضمار بما يمكننا الاســـتدلال من خلاله على استمرارية التأثيـــرات الفرعونية منـــذ ظهورها وحتـــى أواخر القرن التاسع عشر، وربما فيما بعده. ومن الاستشهادات التاريخية والقرائن المعمارية التي أوردها شـــارليز مونتيل[٨]، ولويس ديســـبلاجنس[٩]، ومارســـيا اليادا[١٠]، هي فكرة «قدسية» الأرض ضمن المعتقـــدات الفرعونية، وكيف أن البناء بمادة الطين الخام يرتبط بالعقيدة الدينية لديهم.

كما أكد ريموند موني[١١] وضوح هذه التأثيرات مستدلاً

---

(١) Triaud Jean Louis, Islam et cocietes Soudanaises au moyen age etud historique, p.61, Paris, Ouagadougou, recherches voltaiques .No.16, 1973

(٢) Tor A. Benjaminsen, Gunnvor Berge and Erling Dugan, Myths of Timbuktu: From African El Dorado to Desertification, p.12, International Journal of Political Economy, Spring, 2004, Vol.34, ,No.1

(٣) Le Capitaine Binger, Du Niger au Golf de Guinee par le pays de Kong et la Mossi, 2 vols. .Paris, 1892

(٤) Felix Dubois, Tomboucktou la Mysterieuse, pp.75-169, paris, 1897 & Louis Desplanges, Le .Plateau Central Nigerien, P.365, paris 1907

(٥) Phyllis Ferguson Stevens, Aspects of Muslim Architecture in the Dyula region of the western Sudan, p.11, Inistitute of African studies university of Ghana, Legon, June 1968.

(٦) Bedaux Rogier M. A. Tellem, reconnaissance archéologique d›une culture de l›Ouest africain au Moyen Age: recherches Architectoniques in: Journal de la Société des Africanistes, 1972, .tome 42, fascicule 2. pp.103-185

(٧) Montel Charles, Une cite Soudanise Djenne metropole du delta central du Niger, p.72.

(٨) UNESCO, Villes anciennes de Djenne "plan de gestion et de conservation, 2018-2022", .p.22, Minister de culture, Mali, 2022

(٩) Abadie, General Maurice. La defense des Colonies: resume historiquep.48, Paris: Charles-.Lavauzelle, 1937

(١٠) Adam, Andre. La maison et le village dans quelques trihus de l'anti-Atlas. Collection Hesperis, Institut des Hautes-Etudes Marocaines .No.13 .p.89, Paris: Larose, 1951

(١١) Labelle Prussin, Building Technologies in the West African Savannah. In: 2000 ans d'histoire africaine. Le sol, la parole et l'écrit. Mélanges en hommage à Raymond Mauny. Tome I. Paris:

بالشبه الواضح بين المسلات القديمة ومآذن المساجد التي على هيئة الأبراج، بل ذهب جيمس والتون[١] أيضاً إلى أن المآذن البرجية وأبراج الكنائس بشمال إفريقيا والأندلس مقتبسةٌ منها، كما أكد فيليكس ديبوي[٢] تشابهها بالأكتاف الساندة ذات القمم الهرمية والأبدان المستدقة، وكذلك فكرة الميول التي اتخذتها جدران العمائر كلما ارتفع البناء لأعلى.

كما أكدوا فيما يتعلق بأساليب البناء على أسبقية الفراعنة- كأقدم السلالات البشرية بإفريقيا- ابتكاراً للطوب اللبن، فلا تزال أهراماتهم اللبنية قائمةً، ومن أشهرها هرم سنوسرت الثاني من الأسرة الثانية عشرة بمنطقة اللاهون بالفيوم، ولم تُثبت الكشوفات الأثرية وجود مَن هم أقدم منهم في ذلك. ويدعم هذه النظرية التشابة بين وادي نهر النيل ودلتاه، وأودية النيجر ودلتاه؛ حيث يتشابهان في مختلف الخصائص الجيولوجية والبيئية، ما أدى لشيوع واستمرارية هذه التقاليد على ضفاف نهر النيجر[٣]. كما تشابهت طرق التسقيف والتشطيب للجدران وتجهيز الأرضيات؛ حيث استُخدم نخيل التمر والدوم، وأشجار الباوباب والماهوجني والسنط والسرخس.

وأما الفريق الثاني؛ فيؤكد قوة التأثيرات الوافدة من الشمال الإفريقي، حيث ظهرت بها سلاسل عريقة من الحضارات، ذات أثر واضح على شعوب البحر المتوسط، ومن أبرزها حضارة البرابرة والأمازيغ، فكانت القوافل التجارية تجوب الصحراء الكبرى من السواحل الغربية والشمالية حتى الغابات المطيرة جنوباً، نقلاً لجميع متاجر أوروبا وإفريقيا. من أشهر علماء هذا الفريق: بوفيل[٤]، وفيليس ستيفن[٥]، وموريس ديلافوس[٦]، ويستشهدون بأن المرابطين الأوائل هم مَن نشروا مبادئ الإسلام بالسودان الغربي[٧]، عندما أسسوا رباط الصحراء، وانطلقوا في جهادهم ضد الوثيين، فأدخلوا مختلف النظم، والعادات، والتقاليد البربرية، الدينية والمدنية. كما أكد العلماء فكرة استمرارية تيارات الهجرة من هذه المناطق إلى السودان الغربي، بهدف الاستقرار أو التجارة أو رحلات الحج، وبالتالي ظهرت الجاليات البربرية، والمغربية، والموريتانية، كما أكدوا سيادة الأنماط المعمارية البربرية، خاصةً ما يتعلق بتصميمات البيوت والمساجد. كما استشهدوا بالمعماريين والبنائين ذوي الأصول المغربية والأندلسية، كالمعماري إدريس[٨]، الذي ذكره ديلافوس ومونتيل[٩]، صاحب الإنتاج المعماري المميز بجيني وسيجو حيث القصر الإمبراطوري لزعيم قباءل البامبارا، كما عاصر أبي اسحاق الساحلي الغرناطي (المعروف بالطُّوَيجِن)، وغيرهما ممن وفدوا ضمن الجاليات المغربية، وأحدثوا نهضةً معمارية فنية منذ زمن إمبراطورية مالي، كما يستدلون بالمآذن البرجية،

---

(١) Phyllis Ferguson Stevens, Aspects of Muslim Architecture in the Dyula region of the western Sudan, Institute of African studies P.233, University of Ghana, Legon, June, 1968.

(٢) Felix Dubois, Tomboucktou la Mysterieuse, p.79.

(٣) Hossam Mahdy, Raising Awareness of the Value of Earthen Architecture for Living and Working in the Nile Valley, Egypt, Proceedings of the 10th International Conference on the Study and Conservation of Earthen Architectural Heritage, Bamako, Mali, February 1–5, 2008, Pp.80-85.

Société française d›histoire d›outre-mer, 1981. pp.227-245. Raymond Mauny

(٤) بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص٢٤١.

(٥) Phyllis Ferguson Stevens, Aspects of Muslim Architecture in the Dyula region, p.117.

(٦) Maurice Delafosse et Bernard Mouralis, Les Negres, Editions l harmattan, p.129.

(٧) Moraes Farais. F.F., (De), The Al moravids: some questions concerning characters of the movement during its periods of closest contact with the western Sudan, I.F.A.N.B, 29, 1967, pp.794-917.

(٨) Maurice Delafosse et Bernard Mouralis, Les Negres, Editions l harmattan, p.130.

(٩) Maurice Delafosse, Les relations du Maroc avec le Soudan a Travers les age, p.159. Paris, 1924.

المشابهة لصوامع المغرب والشمال الإفريقي، والتي أصّلها أنصار الفريق الأول بفكرة المسلات.

هنـــاك مَن بالـــغ في الأمـــر فحاول الترســـيخ لفكرة التأثيرات الأوروبية، حيـــث المؤثرات الوافدة من روما على العمارة الأمازيغية والبربرية خلال فترات احتلال الشـــمال الإفريقي، مستشـــهدين بفكرة إنشاء القصبة المغربية داخل المدن كحيٍّ للصفوة، إذ تتركز بها معظم المرافق والمنشآت الرئيســـية، وأن الفكرة نشـــأت في المدن المغربية، ومدن الشـــمال الإفريقي نقلاً عن روما، وبالتالي انتقلت للسودان الغربـــي. غير أن المعلـــوم أن تخطيط المدن الإســـلامية المبكـــرة حمل في طياته هذه الأفكار التي أتت مع الفاتحين الأوائل كعقبة بن نافع مؤسس القيروان، تلك العاصمة التي أصبحت مدرسةً شُيّدت على غرارها فاس وطنجة ومراكش وغيرها من مدن المغرب[١]، والتي أضافت بالطبع كثيراً من الخصائص والســـمات للأسس والتقاليد الإسلامية الوافدة من الشرق، وهذا ما أكده البكري[٢] في كتاباته؛ من أن الدور الأكبر للعرب في مباني إفريقيا كان في الجانب التشـــييدي وخاصـــةً الزخرفة المعماريـــة، وهو ما يتعلق باللمســـات الجمالية أكثر من التفاصيل الجوهرية، ويؤكد في ذلك تعدد المشارب التي وفد بها العرب.

يتضح لنا منطقية هذه الاســـتدلالات والمقاربات؛ غير أنهـــا من وجهة النظر الأثرية لابـــد وأن تكون مرّت بفترات من النمو والازدهار ثم الذبول والاضمحلال وفقاً لمتغيرات عديـــدة، ومن المؤكد أن التأثيـــرات الفرعونية هي الأصل، ســـواءً من جنوب مصر أو شـــمالها، وذلـــك نحو الصحراء الكبرى، كذلك لابد من التأكيد على قوة التأثيرات المغربية والبربرية، ومدى حداثتها واســـتيعابها لكل المتغيرات خلال العصور الوســـطى، وكذلك التأثيـــرات العربية التي وفدت مع المســـلمين، مـــع التأكيد على التأثيـــرات المحلية التي كانت ذات تأثير واضـــح، إذ إنها كانت محليةً قومية تراثية، احتفظت بها الأجيال المتعاقبة وتوارثوها مع تهجينها بكثيرٍ مما وفد عليهم من مؤثراتٍ وافقت معطيات البيئة.

وتؤكد لنا عمارة الســـودان الغربي مدى التأثر بالعرب المسلمين في الشمال الإفريقي، فقد ظهرت هذه التأثيرات بجيني قبل تنبكتـــو[٣]، كما تبدو في البيوت بعض التأثيرات الفرعونيـــة التي ورثها المصريـــون المحدثون عبر مختلف فترات العصور الوســـطى، واقتبســـها العرب المسلمون في مصـــر بعد الفتح، ومـــن ثَمّ نُقلت لشـــمال إفريقيا، ومن ثَمّ للسودان الغربي، فعند مقارنة البيوت التقليدية البسيطة في مصر بهذه البيوت نجد تشـــابهاً واضحاً في طرق وأساليب البنـــاء، وقد أكـــد الرحالة ديبوي ذلك من حيث: أســـاليب البناء، وسمك الجدران، واستخدام الأخشاب في التسقيف، وأحجـــام ووضعيات الغـــرف والوحـــدات الداخلية، وتوزيع مختلف العناصر التي ورثها العرب المســـلمون وأضافوا لها ما يتناسب مع العقيدة الإسلامية.

فعند مقارنة البيوت المغربية ببيوت الســـودان الغربي، خاصةً بتنبكتو وجيني، نلاحظ التشـــابه فـــي توزيع غرف الاســـتقبال والضيافـــة والـــدَّرَج، وتمحورها حـــول الفناء المكشـــوف ذي البائكات من حوله لتوفير الظلال، والتهوية، كما تميزت بيوت تنبكتو بوجـــود فناءين مركزيين؛ أحدهما خارجي للرجال، والآخر داخلي للنساء.

وتتميز الواجهات بالتأثيـــرات الإفريقية الأصيلة ذات الأصول الفرعونية، كما أن مخططات البيوت المتطورة ذات الأفنيـــة الداخلية ذات أصول بربريـــة وفرعونية معاً، حيث وُجدت كثيرٌ من أوجه التشـــابه بين هـــذه الأنماط البنائية العتيقة والأنماط الموجـــودة بتنبكتو وجيني وكثير من مدن الســـودان الغربي خلال العصور الوســـطى، مما يدل على سيادة واستمرارية التقاليد المعمارية القديمة.

(١) Spencer Trimingham, A History of Islam in West Africa, p.77.

(٢) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص (٢٩٦-٢٩٨).

(٣) Diakite Siriman &Yanan Wang, The survival of earthen architecture in Mailian Sahel, case study: the historic city of Djenne, pp.122-134, Journal of current Urban studies, Mars. 2021.

المحور الثالث: الشواهد المعمارية (مسجد جيني الكبير):

يُعتبر مسجد جيني الكبير من أندر الجوامع التقليدية الملهمة على مستوى العالم، كونه يشتمل على كل المؤثرات التراثية المحلية للسودان الغربي، بُني المسجد خلال الفترة الممتدة من نهايات القرن الثاني عشر وحتى بدايات القرن الرابع عشر، ولا يزال قائماً في موقعه الأصلي وسط مدينة جيني القديمة.

وقد بناه «قنبر» والي المدينة وفقاً لأصح الروايات، ثم قام خلفاؤه بإضافة عدد من الأبراج وكذلك الأسوار الخارجية التي تحيط به، كان يُجدد سنوياً على أيدي السكان المحليين، حتى تم ضمّه لقائمة التراث العالمي، حيث كان المسجد قد أُعيد بناؤه عام ١٨٣٠م، حيث قام الشيخ أحمدو بإعادة الإحلال والتجديد له بالكلية، وذلك عقب عودته من رحلة الحج، كما ألحق به مدرسة إضافية بالجانب الشمالي الشرقي يشرف على ميدان السوق، وقد خلفه في الحكم «مالحة تانابو»، فهدم أجزاء من المسجد وبنى بها معبداً وثنياً، ثم قام «أسكيا محمد» فيما بعد بهدم ذلك المعبد وإعادة هذا القسم للجامع مجدداً، وفي عام ١٩٠٧م تمت إعادة ترميم وبناء القسم القديم من المسجد، حيث كانت عناصره الأصلية لا تزال قائمةً، وقد تم ذلك بأمر من الحاكم العام الفرنسي «بونتي».

مسقط أفقي للجامع الكبير بجيني:

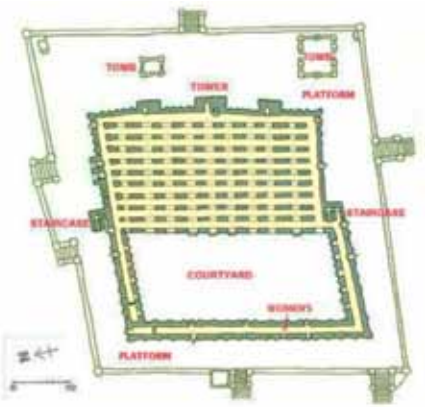

تشير بعض روايات تاريخ الفتاش إلى الصالات والأعمدة في المسجد، مما يؤكد أنها كانت موجودةً منذ أوائل القرن السادس عشر، ولا يُقدّم تاريخ السودان أكثر من أن الجامع كان يحتوي على أبراج وجدار خارجي، بعد وقتٍ قصير من بنائه الأول. ويخبرنا رينييه كالييه أن الجامع كان كبيراً جداً، وذا بناءٍ خشن، وأن له برجين بارتفاعٍ متواضع، كما يشير إلى صحن صغير. كما عاين فيليكس دبوي أنقاض المسجد الأصلي عام ١٨٦٩م، وأدرج وصفاً له بكتابه، حيث الواجهة الشمالية، وبعض البقايا الداخلية، كما أدرج تخطيطاً تخيّلياً له عام ١٨٣٠م، وذلك من خلال روايات الناس الشفوية المتوارثة.

ويتميز جامع جيني بأنه على الطراز الإسلامي الكلاسيكي الذي اتُّبع فيه نهج المسجد النبوي بالمدينة المنورة، حيث الجامع يمثل اللبنة التي يتمحور ويتفرع منها سائر أرباض وشوارع وعمران المدينة الإسلامية، كما أنه شهد نفس التخطيط الذي كان عليه المسجد النبوي بالمدينة، وهو الصحن المكشوف، والظلات (الأروقة) الجانبية، كما أن المسجد شهد كمّاً كبيراً من الدعامات الطينية الضخمة التي مثلت الكيان المعماري للظلات، وجاءت ظلة القبلة أكبرها وأعمقها على الإطلاق، حيث إنها تضم المنبر والمحراب والمقصورة الخاصة بالإمام.

وإن النظر إلى مقصورات المساجد، والدعامات الطينية الضخمة، والمآذن التي تشبه الصوامع، والمداخل ذات الأكتاف، والأسقف المسطحة، وطرق معالجة الجدران، وترتيب العناصر الزخرفية، والقمم الطينية الزخرفية التي يعلوها بيض النعام الناصع البياض، يُظهر لنا أهم خصائص العمارة الطينية التي استُخدمت فيها العديد من التقنيات الحرفية الموروثة عن أصولها الإفريقية، سواءً من وادي النيل أو من الصحراء البربرية أو من المغرب الأقصى[١]، وتُعبّر هذه التقنيات عن مدى مقدرة البنائين على توظيف

(١) Michelle Moore Apotsos, Timbuktu in terror: Architecture and Inconoclasm in contemporary Africa, Article in international gournal of Islamic architecture, pp.209-222, Vol.6, No.1, Mars 2017.

مختلف مواد البناء المحلية مع متطلبات البناء وطبيعة المناخ لخلق أبنية تتناسب في طبيعتها مع كل تلك المعطيات، وتوفر عوامل الراحة والأمن وكذلك الجمال النسبي[١].

واجهة جامع جيني الشرقية:

اســتُخدمت في المسجد الأكتاف الســاندة الخارجية (الدعامات)، وهي تشــبه الفصوص (أنصــاف الأعمدة)، وتؤدي وظائف معمارية وإنشائية وزخرفية معاً؛ حيث أُدمجت في ســمت البناء، وتبدو كصدور معماريــة صمّاء، بغرض التدعيم والجمال، ضخمة من أســفل ثم تستدق كلما ارتفع الجدار حتى تكون داعمةً بشــكلٍ أقوى، ووُضعت التتويجات والحلايا أعلاها في شكل حطاتٍ طينية مثلثة أو مستديرة، كما في مســاجد سنكري وجنجيري بير[٢] وغيرهما وكذلك كثيــر من واجهات المنازل، كما وُجدت على جدران الطوابق الأرضية والعلوية، تحصر فيما بينها دخلات تشبة الحجور، تعلوها أعتاب مستقيمة محمولة على مدادات خشبية تحمل الكرانيش العلوية.

وقد شهد جامع جيني في بنائه الطين الممزوج بالرمل والمــواد الطبيعية؛ كالألياف، والقش، ومســحوق الباوباب، وزبدة الشيا، لتصنيع البانكو (قوالب) الطوب اللبن، وكذلك استُخدم الجص في الهيكل لتقوية الجدران، كما استُخدمت أخشــاب «رونييه» وأغصان وسيقان نباتات السرخس[٣] في هياكل التسقيف المســطحة، كما استُخدمت أحجار الحور الخفيفة والمسامية بنُدرة وبأحجام صغيرة ليتمكن البناؤون من عمل العقود[٤]. وهذا ما حدث كذلك في جدران مسجد مدينــة غاو القديــم، والتي بُنيت بالطــوب اللبن المجفف بالشــمس، في حين بُنــي المحراب من الآجــر المحروق، ويشير الاســتخدام الانتقائي في هذا الســياق الأثري إلى أنه تم تقديمها جنباً إلى جنــب مع تطوير أنظمة بناء قوية ومتماسكة.

وقد لوحظ أن الطوبالي والطوب المخروطي المصبوب يدوياً، المســتخدم بشــمال نيجيريا، غير مناســب لإنشاء العقود، ومع ذلك فإن العقود والقباب تبدو ســمةً مميزة في الهندسة المعمارية للمســاجد هناك، ويُعتبر انتشارها في الواقع مما يســلط الضوء بحدة على ندرة الأشكال المماثلة لها في الســودان الغربي؛ حيث تتركز هذه القباب والأقواس جغرافيــاً فقط فــي المنطقة التي تمتد مــن «فيلينجوي» والنيجر غرباً، إلى «ماروا» بالكاميرون شرقاً.

وتوجد هــذه القباب والأقواس تقريباً في كل مســكن رسمي وقصر ومســجد[٥]، وعلى الرغم من تصنيفها تحت

(١) Mariana Correia & Anthony Crosby & Luis Fernando Guerrero Baca, Technical Strategies for Conservation of Earthen Archaeological Architecture, conservation and MGMT of Arch sites, Vol.17 No.3, August, 2016, pp.224–256.

(٢) Labelle Prussin, Judaic Threads in the West African Tapestry?: p.71, No More Foreever The Art Bulletin, Jun., 2006, Vol.88, No.2 (Jun., 2006), pp.328-353 Published by: CAA.

(٣) السرخسيات: هي إحدى فصائل المملكة النباتية، وهي عديدة ومتنوعة الأشكال، وتنمو في مختلف أنحاء العالم، وخاصةً في المناطق الاستوائية الرطبة والمطيرة، وتصل امتدادات سيقانها الخشبية لما يقرب من مترين ونصف المتر أحياناً، مما جعلها تُستخدم في بعض أغراض الإنشاء والتشييد المعمارية في المناطق التي تنمو بها.

(٤) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p.24.

(٥) في هذه العملية يتم استخدام الفروع الأكثر ليونةً من جذوع الأكاسيا، فيتم حزمها ببعضها في شكل مجموعة من القضبان، وتُثبّت إما بالجدار الطيني مباشرةً أو بالأرض نفسها بشكل رأسي، وتُمدد قطع الخشب لأعلى فأعلى عن طريق إضافة بعض الأفرع الأخرى حتى يكتمل الإطار الكامل للجدار، ثم يتم تغليف هذه الجدران بطبقات الطين أو

ما يُعرف باسم «النمط السوداني» العام، إلا أنها تختلف بنيوياً عن الهياكل الطينية بغرب السودان؛ فبدلاً من الاعتماد على قوس البناء الحقيقي؛ فإن «أقبية الهوسا» تُبنى على إطار هيكلي خشبي أساسي أو بعض أجزاء خشبية أخرى يتم تغطيتها فيما بعد ذلك بالطين. وهو ما يفسر الارتفاعات المذهلة والامتدادات الكبيرة التي يحققها البناؤون والصنّاع لخلق مساحات داخلية كبيرة ومتسعة تحاكي أشكال القباب الحقيقية، ويبدو أن إحدى هاتين التقنيتين ذات الصلة والمستخدمتين في بناء هذه القباب والأقبية مشتقةٌ إحداهما من الآخرى[١]. ولم تظهر القباب في جامع جيني وذلك بسبب المساحة الكبيرة، فقد ظهرت الأسقف المسطحة على نطاقٍ واسع، إضافةً لبعض الأقبية البسيطة[٢].

وقد صُنعت أسقف المسجد الجامع بجيني عن طريق وضع أنصاف جذوع النخيل، المشقوقة بشكل عمودي، كدعاماتٍ ساندة لأرجل العقود لتكوين سقف طيني يعلو نسيجٍ شبكي من الأغصان المستدقة المتشابكة، كما ظهر ذلك أيضاً في أسقف بيوت الفولبي والسنغاي والطوارق، وكانت هذه الأسقف تقليداً متطوراً لما كانت عليه أسقف الكهوف الخشبية والطينية القديمة ذات الأسقف شبه المقببة أو الدائرية التي تحاكي قمة ثمرة اليقطين[٣]. ولمّا كانت جذوع النخيل لا تحقق نفس الليونة التي تحققها جذوع الأكاسيا، فمن ثَمّ استُخدم النخيل لصناعة الأسقف المسطحة كلياً أو بعض المناطق المسطحة بجوار الأسقف المقببة أو شبه الدائرية، ولم تكن هذه العمليات بحاجةٍ لأدوات أو أجهزة أو معدات بقدر ما كانت بحاجةٍ إلى خبرات ومهارات في عمليات البناء، خاصةً في تلك الأجزاء الأكثر صعوبةً من الجدران والأسقف، مع حسن صياغة المواد الطبيعية بدون أي تعديلات كبرى تقريباً[٤].

ولا يزال جامع جيني، وفقاً لهذا الموجز المختصر، يمثل دُرّة العمارة الطينية بالعالم أجمع، وأكبر جامع تقليدي بإفريقيا يشهد بمدى رقي وأصالة التقاليد المعمارية التراثية العريقة التي تُعبّر عن كمال التوافق بين الإنسان والبيئة.

الخاتمة:

شهد السودان الغربي نهضةً عمرانية ومعمارية جيدة في ظل إمكانيات بسيطة، استطاع المسلمون توظيفها ورعايتها وفقاً لمختلف المتغيرات البيئية، وشهدت العمارة الإسلامية هناك بمدى العبقرية الإسلامية الوافدة والمحلية في هضم كل هذه المتغيرات واستيعابها، وإخراجها في قالب مميز ذي خصائص وسمات جديدة وعريقة، تصطبغ شكلاً وموضوعاً بالصبغة الإسلامية الصرفة، رغم ما بها من مختلف التأثيرات المحلية والوافدة، وشهد بذلك عديد من الشواهد المعمارية، التي لم تزل باقيةً حتى الآن، بمختلف مدن وحواضر السودان الغربي، كمدينتي تنبكتو وجيني بجمهورية مالي ■

الجص، وفي حالة الأسقف المقببة يأخذ الإطار المكتمل مظهر القبة، وذلك عن طريق الانحناءات التي تتجمع عند القمة من الجانبين اللذين يمتدان شيئاً فشيئاً حتى يلتقيا في المنتصف.

(١) Sam Nixon, the archaeology of Early Islamic Trans-Saharan Trading towns in West Africa: p.33, a comparative view and progressive methodology from the entrepot of Essouk-Tadmekka, Thesis submitted to University College London for the Degree of Doctor of Philosophy, Institute of Archaeology University College London April 2008.

(٢) Labelle Prussin, The Architecture of Djenne African Synthesis and Transformation, p.137.

(٣) Henry Barth, Travels and Discovers in North and Central Africa, Vol.4, p.375.

(٤) Niane Djebil Tamsir, Recherches sur l empire du Mali au moyen age, p.221, Paris, presences Africaine, 1975.